الفصل الثاني

# الوجود كله لله

التوحيد موضوع دقيق عميق لا يفهمه تمام الفهم إلا أهل البصائر.

وبين الواقع المشهود والأمر الإلهى يتوه العقل.

الله يقول . . ( لا إله إلا أنا ). .أنا الذى أحيى وأميت وأضر وأنفع وأطعم وأسقى وأرزق وأمنع.

والواقع يرينا من حولنا عديداً من القوى الفاعلة لا قوة واحدة . . ويرينا كل قوة من هذه القوى قادرة وفاعلة فى مجالها . . فالرصاصة تقتل والسم يقتل والميكروب يقتل والسفاح يقتل . . كما نرى الملوك يحكمون ويرفعون ويخفضون ويعزون ويذلون ويرزقون ويمنعون.

والقرآن يقطع بإسناد الأفعال مطلقاً إلى الله وكأنما كل هؤلاء لا وجود لهم :

« له مَقاليدُ السَّمواتِ والأرْض يَبْسطُ الرِّزْق لمنْ يَشاءُ ويقْدر » .

( الشورى : ١٢ )

« بِيدِهِ ملكُوت كلِّ شيء وهو يُجيرُ ولا يُجَار عليه » .

( المؤمنون : ٨٨ )

« للهِ مُلْكُ السَّموات والأرْض وما فِيهِنَّ وهو عَلَى كلِّ شيء قدِيرٌ » .
( المائدة : ١٢٠ )

« ولهُ ما سَكَنَ في اللَّيْل والنهارِ » .

( الأنعام : ١٣ )

« وإليْهِ يُرجَعُ الأمرُ كلُّه ».

( هود : ١٢٣ )

« قلْ للهِ الشَّفاعةُ جَميعاً ».

( الزمر : ٤٤ )

« إنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً ».

( يونس : ٦٥ )

« أن القُوَّةَ للهِ جَميعاً ».

( البقرة : ١٦٥ )

ويروى القرآن ما يحدث من ظواهر طبيعية فلا يقول . . نزل المطر أو هبت الريح . أو نبت الزرع أوحدثت كارثة . . بل يقول :

« أنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً » .

( لقمان : ١٠ )

« فأنبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زوجٍ كريمٍ ».

( لقمان : ١٠ )

« وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ » .

( الحجر : ٢٢ )

« وأرسلْنا السَّماءَ عليهِمْ مِدرارا » . ( الأنعام : ٦ )

« وأمطَرْنا عَلَيْهِم حِجارةً مِنْ سجِّيلٍ » .

( الحجر : ٧٤ )

« وأخَذْنا الَّذين ظَلَمُوا بِعذابٍ بئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسقونَ » .

( الأعراف : ١٦٥ )

« فأرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ والجَرادَ والقُملَ والضَّفادِع » .

( الأعراف : ١٣٣ )

« فأرسَلْنا عَلَيْهم رِيحاً صَرْصراً ، فى أيامٍ نحساتٍ » .

( فصلت : ١٦ )

« فأخَذْناهُ وجُنودَهُ فَنبذْناهُم فى اليَمِّ » .

( القصص : ٤٠ )

« فَخَسفْنا بِهِ وبِدارِهِ الأرْضَ » .

( القصص : ٨١ )

« بَلْ مَتَّعنا هؤُلاءِ وآباءَهُم حتى طالَ عليهِمُ العُمُرُ » .

( الأنبياء : ٤٤ )

« فآمَنُوا فمتَّعْناهُم إلىَ حينٍ » .

( الصافات : ١٤٨ )

« وسخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يسبِّحْنَ والطَّير » . ( الأنبياء : ٧٩ )

فيسند كل شيء إلى الله . . وهذا هو التوحيد ، هو الفاعل لكل شيء . . يحيي ويميت ويشفي ويطعم ويسقي .

« نُسْقِيكُم مِمَّا فى بطُونه منْ بَيْن فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشَّارِبين » .

( النحل : ٦٦ )

كل شيء بفعله وأمره :

« وقِيل يـٰأرْضُ ابلعي ماءكِ ويا سَماءُ أقْلِعِي » .

( هود : ٤٤ )

فماذا حدث :

« غِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمْر » .

( هود : ٤٤ )

وهذا هو الفرق بين السرد القرآني وبين السرد الروائي للحوادث . . بين التوصيف الإسلامي والتوصيف العلماني للأمور . . فالتوصيف العلماني يقول نزلت الصاعقة على فلان ، والقرآن يقول أنزل الله الصاعقة على فلان .

ولهذا كان أمراً طبيعياً أن يطلب منا القرآن صرف العبادة لله وحده مادام هو الفاعل وحده لكل شيء .

« لا تَسْجُدوا للشَّمْس ولا للْقَمر واسْجُدوا للهِ الّذِى خلقَهُنَّ » .

( فصلت : ٣٧ )

« أتَعْبُدُون ما تَنْحِتون . واللهُ خلَقكُم وما تَعْمَلُون » .

( الصافات : ٩٥ ، ٩٦ )

« قُلِ الله أعْبُد مخلصاً له دينى » . ( الزمر : ١٤ )

« قُلْ أغَيْرَ اللهِ أبْغِى رَبًّا وهُوَ ربّ كُلّ شَىْء » .

( الأنعام : ١٦٤ )

« قالَ أغيْرَ اللهِ أبْغِيكُم إلهاً » .

( الأعراف : ١٤٠ )

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن بعد ذلك .. إذا كان الله هو الفاعل لكل شيء فماذا يبقى للعبد من فعل وعلام يحاسب وفيم يسأل ..؟! ثم ما هذه الكثرة من القوى الفاعلة التى نراها حولنا تفعل وتؤثر وكأن كلا منها إله .

والموضوع يختلف بحسب نوع هذه الكثرة ، فكثرة الظواهر الطبيعية والقوى المادية يقول لنا القرآن إنها تعمل بالتسيير والتسخير والأمر الإلهى والكلمة الإلهية .. فكلها جنود مجندة من رياح وأعاصير وزلازل وبراكين وفيروسات وميكروبات .

ولكن الله يجعل لفعل هذه المؤثرات أسباباً وقوانين ليخفى مشيئته فيظهرها ، وكأنها تفعل من نفسها ... والملائكة شأنها شأن هذه الجند تعمل بالأمر الإلهى :

« لا يَعصُونَ الله ما أمَرَهُم ويفْعلُونَ ما يؤْمَرونَ » .

( التحريم : ٦ )

وتقول الملائكة للرسول اعتذاراً عن طول غيابها :

« وما نَتنزَّل إلَّا بأَمْرِ رَبِّك ... وَمَا كَانَ ربُّك نَسيًّا » .

( مريم : ٦٤ )

ولهذا تنضوى هذه الكثرة المتكثرة فى وحدة واحدة هى الأمر الإلهى .. الكل يطيعه ولا يتخلف .. فالكل مظهر لمشيئة الواحد .

كثرة لا تتناهى عدداً قد طوتها وحدة الواحد طى
كل شيء فيه معنى كل شيء فتفطن واصرف الذهن إلى

ولهذا يقول القرآن عن الموت .

« قلْ يَتوفَّاكم مَلكُ الموْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكمْ » .

( السجدة : ١١ )

فيسند الموت إلى عزرائيل .

ثم فى موضع آخر يعود فيقول :

« تَوفَّته رُسُلنا وهُم لا يفرِّطُون » .

( الأنعام : ٦١ )

فيسند الموت مرة ثانية إلى جنود عزرائيل .

ثم فى موضع ثالث يعلن الحقيقة

« اللهُ يتوفَّى الأنْفُس حينَ مَوتِها » .

( الزمر : ٤٢ )

فالكل مظهر لمشيئة الواحد . . ولا اختلاف بين الآيات الثلاث فالكل طوع أمره وهذا هو الحال مع كثرة الظواهر الطبيعية ومع القوى المادية ومع الملائكة والملأ الأعلى . . أما مع الجن والإنس والشياطين فنحن مع نفوس مخيرة تطيع وتعصى عن اختيار ، وتخالف الأمر الإلهى إلى هوى نفوسها . . ولهذا جعلها الله محل مؤاخذة ومحاسبة وعقاب وثواب . .

ونرى القرآن يسند العمل إلى الشيطان فيقول موسى بعد أن قتل خصمه فى الشجار :

« قالَ هٰذا مِنْ عَمل الشَّيْطان إنهُ عدوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ . قال ربِّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسى فاغْفِرْ لى فغفر لَهُ » . ( القصص : ١٥ ، ١٦ )

وفى هذا الغفران مصادقة من الله على دور الشيطان ومسئوليته فيما حدث .

أما الإنسان فهو ذروة اللغز وهو المدار الذى يدور حوله القرآن بحكم الخطاب .

والإنسان فى القرآن مأمور بالعمل ومكلف ومسئول ومراقب ومحاسب على أعماله :

« وَقل اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَملكُمْ ورسُولُه والمؤمنُونَ وستَردُّونَ إلى عالم الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَينبئُكم بما كنْتمْ تعْمَلُونَ » .

( التوبة : ١٠٥ )

والقرآن يسند الأعمال صراحة للعبد كما يسندها صراحة للرب فيقول المسلمون لأهل الكتاب :

« اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالكُم » .

( الشورى : ١٥ )

« كُلُّ نَفْسٍ بمَا كَسَبتْ رهِينةٌ » .

( المدثر : ٣٨ )

« كُلّ امْرىءٍ بما كَسَبَ رَهِينٌ » . ( الطور : ٢١ )

« وكُلّ إنْسان ألْزمْناهُ طائِرَهُ فى عُنُقه ونُخْرِجُ لهُ يَومَ القيامةِ كتاباً يلْقاهُ مَنْشوراً » .

( الإسراء : ١٣ )

« فَمَنْ يَعْملْ مِثْقالَ ذرَّةٍ خيراً يرهُ . ومَنْ يَعْملْ مِثقالَ ذَرةٍ شرّاً يَرَهُ » .

( الزلزلة : ٧ ، ٨ )

« ووجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظْلِمُ ربُّكَ أحداً » .

( الكهف : ٤٩ )

« ولا تَعْملُون مِنْ عَمِلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكم شُهوداً إذ تُفِيضون فِيهِ » .

( يونس : ٦١ )

« أنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ مِنكُم مِنْ ذَكرٍ أو أنثىَ » .

( آل عمران : ١٩٥ )

« إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخ ما كُنْتم تعْمَلُون » .

( الجاثية : ٢٩ )

فالعباد لهم أعمالهم وهى تدون صغيرها وكبيرها .

« وكُلّ صغيرٍ وكَبِيرٍ مُسْتَطَر » . ( القمر : ٥٣ )

ولا يظلم الله أحداً مثقال ذرة من عمله .

ويشرح القرآن هذا الازدواج فى إسناد الأعمال للرب وللعباد وكيف أن عمل الرب لا ينفى عمل العبد ، ولا ينفى مسئوليته ، فيقول إن الله أقام الإنسان فى الأرض خليفة ونفخ فيه من روحه وسخر له الطبيعة وطوع له القوانين ومكنه من العمل :

« وإذ قال ربُّك للملائِكَةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفةً » .

( البقرة : ٣٠ )

« وسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰوات وَمَا فِى الأرْضِ جَميعاً مِنْه » .

( الجاثية : ١٣ )

« ولَقَدْ مكَّنَّاكم فى الأرْضِ وجَعلْنا لَكُم فِيها مَعايِش » .

( الأعراف : ١٠ )

فالأمر يجرى على وفاق سنن عليا قررها الله فى الأزل ، والإنسان يعمل بتفويض وتوكيل وله حرية الطاعة والمعصية ، وله أن يحسن أو يسيء التصرف فى هذا الاستخلاف ، وهو مسئول فى نطاق هذا التكليف .

« . . لا يكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعها » .

( البقرة : ٢٨٦ )

وهو بيان قاطع بأن الله أعطانا الاستطاعة وجعل فى وسعنا أن نعمل على وفاق الأمر الإلهى أو ضده .

اختيار الإنسان إذن حقيقة قرآنية . . وحرية ذلك الاختيار مقررة مكفولة .

والمشكلة تبقى . . كيف نوفق بين وجود إرادة للعبد وإرادة للرب . . وكيف نوفق بين هذا وبين تصورنا للتوحيد . . وكيف نفهم إسناد الفعل إلى العبد والرب معاً .

هل هناك إرادتان .

وهل هناك مشيئتان .

هناك سر .

ومفتاح هذا السر فى الآية ذات الدلالة العميقة التى يخاطب الله بها نبيه :

« وما رَمَيْت إذ رَمَيْت ولكنَّ الله رمَى » .

( الأنفال : ١٧ )

فالله فى هذه الآية العجيبة يثبت الرمى للنبى عليه الصلاة والسلام

وفى ذات الوقت ينفى عنه الرمى .. يثبت له الفعل وينفى عنه الفعل فى عبارة واحدة ( وما رمَيْت إذ رمَيْت ) .. ثم فى النهاية يثبت الفعل لنفسه ( ولكنَّ الله رمَى ) .

« فَلَمْ تَقْتُلُوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلهم » .

( الأنفال : ١٧ )

الواقع المشهود الظاهر يقول إنهم قتلوهم بأيديهم وسيوفهم .. هذه حقيقة يشهد بها الواقع – ولكن القرآن ينفيها .

« فلمْ تَقْتلوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهم » .

ويسند القتل بشكل خفى إلى الله .

وهذه إشارة إلى أن المسألة لها ظاهر وباطن ، وأن القضية لها أسرار .

فالظاهر أن أمامنا إرادتين ولكن الحقيقة أن الإرادتين تعملان فى تطابق خفى ، وكأنهما إرادة واحدة .. فالله لا يُكرِه العبد على مالا يريد بل يختار له من جنس قلبه ويريد له عين ما أراد لنفسه ويسهل له إنفاذ ما أضمر فى نيته .. من أراد الدنيا آتاه الدنيا ومن أراد حرث الآخرة زاد له فى حرث الآخرة من طلب الهدى هداه ومن أضمر فى قلبه المرض أمرضه من أعطى واتقى وصدق بالحسنى يسره لليسرى ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى يسره للعسرى .. والآيات على ذلك صريحة .

« مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِه ومن كانَ يُرِيد حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها » .

( الشورى : ٢٠ )

« والَّذِينَ اهْتَدَوا زادَهُمْ هُدًى » .

( محمد : ١٧ )

« إنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبكم خيراً يُؤْتِكم خيراً ممَّا أُخِذَ مِنْكُمْ » .

( الأنفال : ٧٠ )

« فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فزادَهُمُ اللهُ مَرضاً » .

( البقرة : ١٠ )

« فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى .وصَدَّق بالْحُسْنَى.فَسنُيَسِّره للْيُسْرى.وأمَّا مَنْ بَخلَ واسْتَغْنَى.وكَذَّبَ بالحسْنَى.فَسنُيَسِّره للعُسْرى » .

( الليل : ٥ — ١٠ )

ومعنى ذلك أن الله يقضى على العبد بما يطابق نيته . . وأن العبد ينوى والله ينفذ له ما نوى . . إذا أراد أن يضر قال له الله هاك يدى نفذ بها ما أضمرت من ضرر وعليك إثم نيتك وإن أراد أن ينفع ويفيد قال له الله هاك يدى نفذ بها ما أضمرت من نفع ولك ثواب نيتك فالله فى الحالين هو النافع الضار وهو الفاعل . . وإنما تبتلى السرائر ( النيات ) ويوم القيامة هو :

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ » .

( الطارق : ٩ )

« إذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ.وحُصِّلَ ما فِي الصّدُورِ »

( العاديات : ٩ ، ١٠ )

فبواطن القلوب والنيات هى عمدة الحكم .

ومن هنا تزول الثنائية ونعود إلى واحدية ، فالله يسيرك إلى عين اختيارك .

فلا جبر ولا إكراه ولا وجود لإرادتين متنازعتين بل مشيئة واحدة ، فالله يشاء لك عين ما شئت لنفسك وينفذ لك ما أضمرت فى قلبك ليكشف لك ما كتمت ، ويعلن ما خبأت ويظهرك أمام نفسك على حقيقتك . . وبذلك يزول الخيط الدقيق الفاصل بين التسيير والتخيير ، ، فإذا بالتسيير هو عين التخيير والتخيير هو عين التسيير . . وإذا بالاثنين واحد فى ذلك اللغز الذى اسمه الإنسان .

ولكن الله كان يعلم سلفاً كل شىء بحكم علمه المحيط . . وعلم الله لا ينفى حرية العبد . . كما أن علمك بضعف ابنك فى لغة ثم تنبؤك برسوبه لا يعنى أنك أنت الذى أسقطته فى الامتحان . . إنما هو علم حصر وإحاطة لا علم إلزام وإكراه .

إذن لسنا عرائس فى مسرح عرائس تحركنا الخيوط راغمين فنتعانق ونتلاكم دون أن يكون لنا فى الأمر حيلة واختيار .

كما أننا لسنا ممثلين فى مسرح دراما نتلو أدواراً محفوظة وكل منا يمثل هاملت « وكأنه » هاملت ودون أن يكون أبداً هاملت .

بل نحن نمثل أنفسنا ونختار طبائعنا ونباشر نياتنا . . فنحن حقائق ولسنا دمى .

وإذا كان لا بد من التشبيه بالمسرح . . فنحن نمثل على مسرح عجيب تختفى فيه كمبوشة الملقنين فلا تظهر لنا ولا لأحد . . ويباشر التلقين فى هذه الكمبوشة الخفية عدد من الملائكة والشياطين يلقنون الممثل نسخاً مختلفة من نفس الدور . . واحد يقول له اقتل . . والآخر يقول له . . لا تقتل . . حرام . . اصفح واغفر . . وثالث يقول . .

بل تكسر له ساقه كما كسر لك ساقك . . ورابع يقول بل تكسر ساقه وتسرق حافظته . . وخامس وسادس وسابع وثامن . . وكل واحد يقترح عبارة وفعلا . . ويتلقى الممثل هذه الاقتراحات دون أن يرى مقترحيها فيخيل إليه أنها من نفسه . . وهو يتخير منها فيستجيب إلى ما يوافق نيته وطبعه . . وهو بهذا المعنى لا يمثل بل يعبر بصدق عن وجوده ( كل اللغز أن الله عالم مسبقاً بجميع اختياراته ولكن هذا العلم الإلهى لا يتدخل فى تلك الاختيارات ) ومن هنا كانت الرواية الإلهية محبوكة بينما الرواية الشكسبيرية ملفقة ومحفوظة من الممثلين مسبقاً والرواية الإلهية مبنية على خطة التوحيد الكامل بينما رواية شكسبير تتدخل فيها عدة أيد وعدة مشيئات . . كمشيئة المخرج أو المنتج أو الممثل أو صخب الجمهور ويمكن أن تنتهى إلى الفشل والإحباط .

سوف يقف واحد ويعترض قائلا :

صدقنا أن البطل فى هذه التراجيديا الإلهية المحكمة لا يمثل ولا تحركه الخيوط بالرغم عن إرادته بل هو يختار نيته وضميره وينفعل عن طبعه ونفسه وحقيقته . . ولكن ألا يحق لنا أن نسأل : ومن خلق له حقيقته ؟ !

وهو سؤال يحملنا إلى حلقة أخرى من حلقات العماء والخفاء والأسرار . . فنقول . . لا . . حقيقة أى إنسان غير مخلوقة وغير مجعولة . . ولو كانت حقيقتك مخلوقة مجعولة لما كانت حقيقة . . ولأصبحت تلفيقاً طارئا .

وسوف يعود السائل ويسأل مندهشاً .

وإذا كانت حقيقتى غير مجعولة . . فمن أين أتت ؟ ! فنقول :

حقيقتك أزلية قديمة وليست بجعل جاعل . . والله لا يقلب الحقائق ولا يغيرها . . وإنما يعطيها لبسة الوجود لتعبر عن نفسها وتكشف عن دخائلها . . .

وسوف يصرخ صاحبنا حائراً :

وأين كنت قبل إيجادى .

فنقول :

كنت حقيقة فى العدم تطلب من الله الوجود بلسان الحال فرحمك الله بإيجادك وألبسك لبسة الوجود وأعطاك الذراع والقدم واللسان لتضر وتنفع وتتحقق بمنزلتك ورتبتك بلا ظلم وبلا قهر وبلا تدخل من أحد . . يقول لك ربنا .

« وقدْ خَلقتُك منْ قبلُ ولمْ تكُ شَيئاً » . (مريم : ٩)

ويقول :

« . . إنَّما قَوْلُنا لِشيْء إذا أردْناهُ أنْ نَقُولَ لهُ كُن فَيكُونُ » .

(النحل : ٤٠)

فيوجه الخطاب (أن نقول له) لتلك الحقيقة فى العدم وكأنما لها كينونة من نوع ما . . وكأنما العدم غير معدوم .

وذاك سر آخر يعرفه أهل الأسرار .

فالعدم ليس معدوماً وإنما له كينونة من نوع ما ، والفرق بين كينونة الوجود وكينونة العدم كالفرق بين الموجب والسالب . . وكالفرق بين الفاعل والقابل . . وكالفرق بين النور والظلمة .

ولو كان العدم معدوماً لما كان له معنى فى الذهن
فالعدم كلية من الكليات .
وكل كلية تندرج تحتها حقائق .
وتلك الحقائق المندرجة فى العدم هى النفوس والأعيان الثابتة فى الأزل التى تتطلع إلى الله طالبة أن يرحمها بإيجادها .
أنا . . وأنت . . وكافة الخلائق . . حقائق لها قدم وثبوت وأحقية فى الأزل ولكنها حقائق سالبة غير قادرة على الوجود بذاتها وهى تظل عاطلة عن الفعل حتى يعطيها الله القدرة على الوجود والفعل .
وهذا كلام عجيب يفتح أمامنا مغاليق مثيرة ويضع أقدامنا على على حافة الخفاء المطلق .
وهو كلام يفتح الباب لألف سؤال وسؤال . .
وليس مطلوباً من مسلم أن يخطو إلى هذا المدى . .
ومن الممكن للمؤمن أن يعفى نفسه من كل هذا البحث ويكتفى التسليم والتصديق بنص القرآن وبأنه حر مخير مكلف مسئول وبأن الله عادل لا يظلم أحداً وأنه وحده الفاعل والضار النافع بالرغم من كثرة القوى التى تبدو فى الظاهر وكأنها تضر وتنفع . . يؤمن بذلك تسليماً وتصديقاً ويكفى نفسه شر الحيرة . . ويقول :
« حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل » .
« وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرانك رَبَّنا وإليْك المصير لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسْعها لها ما كَسَبت وعليْها ما اكتسبت » .
( البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦ )

وهذا هو توحيد أهل الإقرار ولهم عند الله ثواب عظيم .

ويقول الإنجيل :

« طوبى لمن آمن ولم ير » .

ويقول القرآن عن

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » .

( البقرة : ٣ )

« أولئِكَ عَلَى هُدًى منْ ربِّهِم وأولئك هُم المفْلِحُون » .

( البقرة : ٥ )

ولكننا فى عصر عقل وعلم والإنسان يلقى الدمار حيثما أراد بضغطه على زرار ويرسل القنابل الذرية فى صواريخ ويذرع الفضاء بالأقمار الصناعية وينزل الأمطار بالكيماويات ويتنبأ بحركات الشموس والنجوم القاصية لأصغر جزء من الثانية وكأنما أصبح إلهاً .

نحن فى عصر يتبجح فيه العقل بأنه كل شىء .

وسوف تجد من يعترض عليك طريقك ليسألك فى إصرار . . كيف يقدر الله لنا أقدارنا ثم يحاسبنا ؟

فإذا قلت له . . « سلِّم تسْلم وآمن بلا جدل » انصرف عنك لا يلوى على شىء . . ولم يكتف باتهامك بالعجز بل جاوز الأمر إلى اتهام دينه بالعجز وقرآنه بالقصور .

ولهذا كان لا بد من قبول التحدى ، فنحن أبناء عصورنا ، وديننا دين عقل يأمر بالتفكر ولا يحظر أعمال العقل إلا فى منطقة واحدة هى

الذات الإلهية وكل ما عدا ذلك من الغيوب والأسرار أباحه الله لأهل العقول والبصائر كل على قدر استعداده .

ومن لطف الله بعباده أن أباح لهم بعض الخفايا لتجد بعض النفوس التواقة زاداً متجدداً يشفى فضولها وأشواقها ويجد كل عصر زاده وحاجته من العلوم والمعارف .

سيقول صاحبنا الذى لا يكف عن السؤال : وهل عندكم حقائق وراء ذلك فى خفايا أمر التوحيد .

سنقول نعم . . والسير إلى الله لا ينتهى . . فوراء توحيد أهل الإقرار . . هناك توحيد أهل الأسرار فالأولون وقفوا عند التصديق والتسليم . . والآخرون رابطوا وصابروا وصبروا وعبدوا واجتهدوا وتطلعوا إلى مزيد فوهبهم الله الشهود .

سيقول وما ذروة الشهود ؟

فنقول : إن تشهد عدمك وإن الوجود كله لله والفعل كله لله . . وإن كانت النية لك والاختيار لك . . وأن تفهم سر الآية :

« وما رَمَيْتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمَى » .

( الأنفال : ١٧ )

والآية :

« فلم تَقْتُلوهم ولكنَّ الله قَتَلَهم » .

( الأنفال : ١٧ )

وتفهم لماذا أثبت الله الفعل ونفاه فى نفس الوقت عن العبد . . وتشهد كيف كانت اليد يده سبحانه والرمية رميته وإن صدرت حقيقة الاختيار عنك . .

وذلك مشهد شريف دقيق لا مدخل فيه إلا للخاصة . . ولا فهم ولا ذوق إلا للخاصة الذين بلغوا مرتبة الإحسان فى العبادة فاستحقوا المزيد .